الفصل الثالث
التفكير السلبى المرفوض

- تمهيد.
- عقبات فى طريق التفكير الصحيح.
- التفكير الأسطورى.
- التفكير الخرافى.
- التفكير التسلطى.

تمهيد :

يوجد نوعان من التفكير Types of Thinking هما: التفكير غير العلمى (أنماط التفكير غير الصحيحة)، والتفكير العلمى (أنماط التفكير الصحيحة)، وأنماط التفكير غير الصحيحة تعكس نوعًا من التفكير لايعتمد على العلل أو المنطقية وتتمثل أهم أنماطه فى الآتى:

* التفكير العشوائى: وهو الذى يقوم على المحاولة أو الخطأ عندما يتعرض الفرد لمشكلة فوق مستوى قدراته.
* التفكير الذاتى أو الخرافى Subjective or Unrealistic Thinking: وهو الذى يعتمد فى عناصره على حقائق أو وقائع غير صحيحة، حيث يمارس بعض الأفراد هذا النوع من التفكير بأساليب غير منطقية لحل مشكلات طبيعية. وقد يدور حول أشياء ليس لها وجود موضوعى حقيقى فى غير خيال وأوهام الفرد الذى يفكر فيها من خلال عالمه الذاتى الشخصى، مثل: أحلام اليقظة والأوهام، ولذلك يكون سلبيًا، ويدل على مظهر من مظاهر الأمراض النفسية.

ورغم ما تقدم، فى حالات نادرة جدًا، يمكن أن يكون التفكير الذاتى أو الخرافى إيجابيًا ومثمرًا، إذا قاد الفرد إلى تحقيق إبداعات وإنجازات غير مسبوقة.

* التفكير التقليدى : وهو الذى يستمد عناصره من التقاليد والأعراف السائدة فى المجتمع.
* التفكير الاعتمادى : وهو الذى يعتمد الفرد فيه على الآخرين ليفكروا نيابة عنه.

أولاً : عقبات فى طريق التفكير الصحيح :

يقول **جواهر لال نهرو** (١٨٨٩-١٩٦٤)- وهو أول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال- الآتى:

«العلم وحده هو القادر على حل مشكلات: الجوع والفقر والمرض والجهل، والخرافات والعادات والتقاليد البالية، والثروات الهائلة الآيله إلى النضوب، والبلدان الغنية التى تتضور شعوبها جوعا...

وهل هناك من يجرؤ على تجاهل العلم؟ فنحن نلتمس العون منه فى كل أمر... ولا وجود فى المستقبل إلا للعلم، ولكل من يناصر العلم».

إذًا، العلم هو أنبل مساعى العقل البشرى، ومن معينه ينبع تيار لاينقطع أبدًا من الاكتشافات الخيرة، كما أنه جعل المجتمع أكثر إنسانية وتطورًا وتقدمًا ورفاهية.

وفى هذا الشأن، خصص الفيلسوف **كارل بوبر** كثيراً من تأملاته للطرائق العلمية ولتطبيقاتها على المجتمع، لقد أثبت أن العلم يستطيع على الأقل أن يسهم إسهامًا متواضعًا فى توجيه الناس نحو موقف علمى من المسائل السياسية.

ولكن الغريب -بحسب ما رواه **مارتن جاردنر**- أن الرئيس الأمريكى الأسبق **رونالد ريجان** كان يستشير المنجمين بانتظام قبل اتخاذ قراراته المهمة. كما أن بعض أعضاء هيئة التدريس فى جامعة كمبردج -وهى من أعرق الجامعات فى المملكة المتحدة (بريطانيا) كانوا يعتقدون أن الساحر **جيلر** Geller أنه قادر على لىّ الملاعق بنظرة، ويمكنه -أيضًا- أن يعطل قوانين الفيزياء.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى **بوبر**، نجده كان يجادل بأن المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية يجب أن يتم تناولها بالنهج البراجماتى (الذرائعى) نفسه، بدلا من اتباع نهج دوجماتى Dogmatic اتباعى.

ومن منطلق أن العلم هو انتصار العقل، قال **برتراندرسل**: «إن العقلانية، باعتبارها معيار الحقيقة العمومى واللاشخصى، هى على درجة قصوى من الأهمية، ليس فحسب فى العصور التى تسود فيها بلا منازع، بل أيضًا، وحتى أكثر، فى الأزمنة الأقل حظًا والتى تكون فيها مزدراة ومرفوضة باعتبارها حلما عقيمًا لمن لايملكون الرجولة الكافية لأن يقتلوا عندما لايستطيعون أن يكونوا موافقين»[1].

وعلى الرغم من الأهمية العظمى والمتناهية القوة للعلم، فيمكن أن يكون العلم من أدوات التدمير الشامل، ليس لحياة الفرد فقط، بل أيضًا لمصير الإنسانية جمعاء، وخاصة إذا استخدم العلم بأساليب شيطانية فجة، فاعلم دون ضمير هو موت الروح.

ولكن: بقدر ما نجد العلم فى وقتنا الحالى قد أصبح يمثل الفعالية العظمى التى تشكل وتعيد تشكيل العقل والواقع المعاصرين، يومًا بعد يوم وإلى غير نهاية، وأيضًا بقدر ما بدا العلم الحديث عملاقًا، ويزداد تعملقًا بصورة مطردة، فانبهر به أهلوه ورجالات عصره[2]، نجد -للأسف- أن قطاعًا عريضًا من العلماء أنفسهم- رغم إنجازاتهم العلمية المثمرة... يعتقدون فى المجهول، ويجرون وراء الطالع، ويحاولون استشراف المستقبل بأساليب غير علمية، وغير مقبولة دينيا، كما أنهم يتحمسون لقيم تراثية بالية عفا عليها الزمن، ولم تعد مناسبة للعصر الحالى.

حقيقة، لقد أفتتن بعض العلماء بالعلم ذاته، وألقوا الضوء على ظواهره التى غدت باهرة، وتأملوا فى رونق جلال وجبروت شموخ الاكتشافات العلمية، ولكن ذلك لم يحول دون توجيه تفكيرهم وإهتماماتهم نحو أمور ساذجة لايقبلها العقل ويرفضها المنطق.

إذا كان هذا حال العلماء، فما بالنا بالأفراد العاديين غير المتعلمين، وأيضا ما بالنا بالطلاب غير الناضجين. إن الإنسان عندما يفتقر لمقومات التفكير غير الصحيح، يمكن استغلاله أسوأ استغلال، حيث يمكن استخدامه كأداة طيعة لتفنيذ المخططات الإجرامية والإرهابية، أيضًا، عندما يفقد السيطرة على آليات تفكيره، رغم أنه كامل الأهلية والإدراك، يمكن أن يخضع لأية مؤثرات خارجية أو داخلية مدمرة له، وللآخرين، وللمجتمع نفسه. وهنا، يجب طرح السؤالين المهمين التاليين:

(١) ما الأسباب التى حالت دون اكتساب الفرد بعامة، والطالب بخاصة مقومات التفكير الصحيح؟

(٢) ما دور التربية فى إزالة المعوقات والعقبات لتمهد الطريق أمام الطالب ليمارس التفكير الصحيح؟

وبالنسبة للسؤال الأول، يجيب عنه **فؤاد زكريا**، فيقول(٣):

العلم ظاهرة متأخرة فى تاريخ البشرية. وسواء أكنا من القائلين بأن العلم بمعناه الصحيح، ظهر منذ أربعة قرون فى عصر النهضة الأوروبية، أو بأنه يرجع إلى العصر اليونانى القديم حين اهتدى الإنسان، لأول مرة، إلى منهج البرهان النظرى والمنطقى على قضاياه، أو حتى إلى الحضارات الشرقية الأقدم عهدا، التى تركت لنا تراثا يدل على وجود معارف متراكمة لديها تستحق اسم العلم -أقول أننا سواء أكنا من القائلين بهذا الرأى أو ذاك، فلابد لنا من الاعتراف بأن البشرية عاشت قبل ذلك عشرات الألوف من السنين دون أن يتكشف نشاطها عن تلك الظاهرة التى نطلق عليها اسم العلم. ولو كنا ممن يتقيدون بالمعنى الدقيق لكلمة العلم، ويشترطون لكى تكون المعرفة علما أن تكون قد اكتسبت مناهج منضبطة تجمع بين الملاحظة الدقيقة والفرض العقلى والتجريب التطبيقى، وتصطنع الرياضة لغة للتعبير عن قوانينها، لوجب علينا عندئذ أن نشبه البشرية بإنسان عاش سبعين سنة من عمره أميا، ولم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى اليومين الأخيرين من حياته!

بل إننا نستطيع أن نقول أن البشرية، منظورا إليها ككل، مازالت بعيدة عن اكتساب جميع سمات التفكير العلمى، ومازال هذا التفكير يقتصر فيها على مجتمعات معينة، وحتى فى هذه المجتمعات يتعرض العلم لتشويهات عديدة، قد تظهر حتى بين المتخصصين فيه.

فهل يعنى ذلك أن العقل الإنسانى ظل خلال هذا التاريخ الطويل خاملا؟ من المؤكد أن الوعى والتفكير العقلى والنشاط الروحى لم تتوقف لحظة واحدة طوال تاريخ الإنسان، بل إنها تكاد تكون مرادفة لهذا التاريخ. فمنذ أبعد العصور أنتج الإنسان فنونا كان بعضها

رفيعا، كما أنتج أشعاراً وحكمًا، وعرف العقائد والشرائع وكون لنفسه نظمًا اجتماعية وأخلاقية. أى أن عقله يعمل بلا انقطاع، فلماذا إذن لم ينتج العلم إلا فى وقت متأخر؟

لقد آثر الإنسان، طوال الجزء الأكبر من تاريخه، ألا يواجه الواقع مواجهة مباشرة، وأن يستعيض عنه بأخيلته أو صوره الذاتية. وهذا أمر لايصعب فهمه: إذ أن المواجهة المباشرة للواقع فيها صعوبة ومشقة، وتحتاج منه إلى بذل جهد كبير. وعليه أن يروض ذاته على أطراح ميولها الخاصة جانبا، وقبول الظواهر على ما هى عليه، ثم استخلاص القانون الكامن من وراء هذه الظواهر، وهو أمر يقتضى مستوى عاليا من التجريد. وهكذا يمكن القول أن اتجاه الإنسان نحو العلم ينطوى على قدر كبير من التضحية: التضحية بالراحة والهدوء والاستسلام للخيال السهل الطليق، كما ينطوى على عادات عقلية فيها قدر كبير من الصرامة والقسوة على النفس. ولقد قال البعض أن العلم لم يبدأ إلا مع «الرياضة». وأحسب أن هذه العبارة تغدو أبلغ وأدق فى التعبير عن البداية الحقيقية للعلم لو فهمنا لفظ «الرياضة» هذا، لا بمعنى أنه علم الأرقام والكم فحسب، بل أيضًا بالمعنى النفسى والأخلاقى، أى بمعنى رياضة «الروح أو النفس» على اتباع نهج شاق من أجل فهم الظواهر بالعقل والمنطق الدقيق.

وبعبارة أخرى فإن العلم يظهر منذ اللحظة التى يقرر فيها الإنسان أن يفهم العالم كما هو موجود بالفعل، لا كما يتمنى أن يكون. ومثل هذا القرار ليس عقليًا فحسب، بل هو بالإضافة إلى ذلك، وربما «قبل» ذلك، قرار معنوى وأخلاقى. ولابد للعقل البشرى أن يكون قد تجاوز مرحلة الطفولة، التى نصور فيها كل شىء وفقا لأمانينا، إلى مرحلة النضج التى تتيح لنا أن نعلو على الخلط بين الواقع والحلم أو الأمنية. وهذا مستوى لايصل إليه الإنسان إلا فى مرحلة متأخرة من تطوره.

أما قبل هذه المرحلة فكان من الطبيعى أن يستعيض الإنسان عن العلم بالحلم، دون أن يدرى أنه يحلم، وكان من الطبيعى أن تظل البشرية كلها، طوال ألوف عديدة من السنين، وفى جميع أرجاء الأرض بلا استثناء، مبتعدة عن رؤية الواقع وفهمه على ما هو عليه. وخلال هذه الفترة «الحالمة» كان الأدب والفن هما المظهر الرئيس لنشاط الإنسان الروحى. وفى الآداب والفنون يهتم الإنسان بمشاعره الذاتية أكثر مما يهتم بالعالم المحيط به، وإذا اتجه إلى هذا العالم الخارجى فإنما يتجه إليه من خلال أحاسيسه الخاصة وميوله الذاتية، فلا يرى إلا مرآة تنعكس عليها انفعالاته وعواطفه.

بل إننا نستطيع أن نقول أن الفلسفة ذاتها، حين سارت فى طريقها الخاص بوصفها نشاطًا عقليًا خالصًا عند اليونانيين، كانت تهتم باتساق بنائها الداخلى، وبتماسك التركيب

العقلى الذى يكونه الفيلسوف، أكثر مما تهتم بالعالم الواقعى. وهذه سمة يمكن استنتاجها بوضوح مما عرضناه من قبل عن الصفات المميزة للعلم النظرى، (المختلط بالفلسفة) عند اليونانيين. وحين كانت الفلسفة تتحدث عن عالم الواقع، كانت فى معظم الأحيان تصفه بأنه خداع، بل تعد الحواس خداعة لأنها تختص بإدراك عالم مادى من طبيعته ألا يكون موضوعًا لمعرفة صحيحة.

وهكذا ظل الإنسان طويلا يستعيض عن العلم بخيالاته وانفعالاته وحدسه وأفكاره المجردة، ولم يصطنع منهجا يتيح له الاتصال المباشر بالواقع، عن طريق الجمع بين العقل والتجربة، إلا فى مرحلة متأخرة من تاريخه. فلابد إذن أن عقبات أساسية حالت دون تحقيق هذا الاتصال المباشر بين الإنسان والعالم عن طريق العلم. ولابد أن الإنسان قد بذل جهوداً كبيرة حتى استطاع أن يسيطر على عقله، ومن ثم يسيطر على العالم. ولابد أن تاريخ الناشط الروحى والعقلى للإنسان كان تاريخا للأخطاء والأوهام التى تغلب عليها الإنسان بمشقة، بقدر ما كان تاريخًا لحقائق اكتسبت بالتدريج. فما هى هذه العقبات التى أخرت ظهور العلم، والتى لاتزال تشوه صورة المعرفة العلمية حتى يومنا هذا عند فئات كثيرة من البشر؟

لقد ظلت الأسطورة تحتل المكان الذى يشغله العلم الآن طوال الجزء الأكبر من تاريخ البشرية.

وترجع أسباب انتشار الفكر الأسطورى إلى أنه كان يقدم -فى إطار بدائى- تفسيراً متكاملاً للعالم. فالأساطير القديمة تعبر عن نظرة الشعوب التى اعتنقتها إلى الحياة والطبيعة والعالم، وتقدم تفسيراً يتلاءم مع مستوى هذه الشعوب ويرضيها ارضاء تاما. وهى فضلا عن ذلك تجمع بين الطبيعة والإنسان فى وحدة واحدة، يزول فيها الحد الفاصل بين هذا وذاك، بحيث يبدو العالم متلائما مع غايات الإنسان محققًا لأمانيه، وهى -كما قلنا منذ قليل- سمة رئيسة من سمات الفكر غير الناضج فى عصور طفولة البشرية.

وبالنسبة لإجابة السؤال الثانى، الذى يتمحور حول دور التربية فى إزالة العقبات التى تحول دون أن يكون تفكير الطالب تفكيراً صحيحًا دقيقًا، يتسم بالعلمية الخالصة، لمواجهة ظروف عصر العلم والتكنولوجيا، ولمواكبة متطلبات التدفق المعلوماتى، نقول:

إن المعرفة البشرية تتضاعف، لدرجة أن السنوات العشرة الأخيرة من القرن الماضى خلفت معرفة علمية أكثر مما خلفه التاريخ البشرى كله، ناهيك عن التطور الهائل الذى حدث فى قدرة الكمبيوتر وفى إمكانات إنترنت، والذى حدث فى سلاسل الـ DNA التى يتم تحليلها مرة كل عامين.

وفى هذا الصدد يقول **ميتشو كاكو**: «وفى كل يوم تقريبا تبشرنا العناوين الرئيسة للصحف بتطورات جديدة فى مجالات الكمبيوتر والاتصالات والتكنولوجيا واستكشاف الفضاء. وفى أعقاب هذه الثورة التكنولوجية تنقلب صناعات وأساليب حياة بكاملها رأسًا على عقب لتؤدى إلى نشوء أخرى. غير أن هذه التغيرات السريعة والمدهشة ليست كمية فقط، إنها آلام المخاض لمولد عصر جديد»(٤).

تأسيسًا على ما تقدم، يجب أن يكون للتربية دورًا مهمًا وفاعلاً من خلال منظورين، أولهما يتمثل فى تهيئة الطالب علميا ووجدانيا ونفسيا وانفعاليا ليقبل دور العلم فى حياتنا، وثانيهما يتمثل فى إكساب الطالب مقومات التفكير الصحيح من خلال إزالة العقبات التى تعترض سبيل تحقيق هذا الهدف النبيل، وعن طريق تأكيد أهمية الدور الرائع للتفكير الصحيح فى حياة الإنسان.

ويمكن تحقيق ما سبق ذكره **إجرائيًا**، بتنفيذ الخطوات التالية:

* أن تبرز التربية أهمية التصدى للروح السلبية السائدة بين الطلاب، وأن تعمل جاهدة من أجل إذكاء روح النضال الاجتماعى، بصفته مطلبًا أساسيًا ومقومًا لا بديل له للحفاظ على كيانهم.
* أن تتصدى التربية بصورة منهجية وفعالة لحملات الغزو الثقافى الذى يحشد وسائل معلوماتية عديدة وحديثة من أجل تشويه تراثنا والنيل من قضايانا.
* أن تهتم التربية بالطفل والمرأة أساسًا، بحيث تحقق للطفل احتياجاته الأساسية، وتحقق حلولا لقضايا المرأة، بما يجعلها فى موضع المساواة مع الرجل فى الحقوق والواجبات.
* أن تركز التربية على أمور التنمية التعليمية التعلمية من منطلق ثقافى واجتماعى، له جذوره القومية ومنطلقاته العالمية.
* أن تؤكد التربية أهمية التجاوب والتواكب مع مطالب عصر المعلومات، فى تحقيق ممارسة أوسع وأفضل للإدارة التربوية الديمقراطية، لتقوم على أساس مشاركة جميع الأطراف.
* أن تعمل التربية على تحديث ذاتها -وقد يصل الأمر إلى تغيير نمطها القائم بالكامل- من أجل خلق الإنسان المبدع القادر على الإسهام الفعال فى عالم مغاير بشدة.
* أن تحقق التربية حملات قومية للتعليم العلاجى، وأن تقوم بإعادة تأهيل المعلمين والطلاب، على حد سواء، لتقليل حجم الهادر البشرى بسبب التخلف المعلوماتى.
* أن تعمل التربية جاهدة من أجل إنشاء جسور التواصل بين المؤسسات التعليمية والواقع المعايش خارجها.

* أن تؤكد التربية أهمية استخدام الكمبيوتر ونظم المعلومات فى المدارس، كوسيلة لتقديم خدمات تعليمية أفضل للمناطق النائية والفئات المستضعفة.
* أن تهيئ التربية لغتنا القومية من أجل مواكبة متطلبات تكنولوجيا المعلومات، ومن أجل تحقيق التكامل مع مطالب عصر المعلومات، دون أن يكون ذلك على أساس المساس بجوهرها.
* أن تستغل التربية الوسائل المتاحة لدفع وتحديث حركة التنظير اللغوى، ولتثوير تعليم وتعلم اللغة العربية، وللاهتمام بنظم الترجمة الآلية التى تمثل أساسًا ضروريًا لملاحقة التطور العلمى والتقنى والفكرى.
* أن تستثمر التربية عقول الطلاب بفاعلية فى إطار سياسات علمية وتكنولوجية متقدمة ورفيعة المستوى.
* أن تدرك التربية أن مجتمع المعلومات يوفر مناخا مواتيا لإعداد الطلاب ذوى العقول القوية، الذين يعملون بجد ودأب، ويقبلون التحدى مهما عظم شأنه.
* أن تعدل التربية من تنظيماتها وأساليب إدارتها وأدائها، بما يحقق لها مرونة كافية للتكيف مع المتغيرات الحادة التى يفرضها مجتمع المعلومات.
* أن تشجع التربية الطلاب على المشاركة فى العمل الإدارى، سواء أكان ذلك على مستوى المدرسة ككل أم على مستوى الفصل الواحد.
* أن تخلق التربية مناخًا مشجعًا على تطور أفكار الطلاب، ويعمل على تحقيق تعلمهم بكفاءة عالية(٥).

وجدير بالذكر أن التربية قد تنجح فى تحقيق مقاصدها المأمولة، التى سبق ذكرها، وبذلك تزيح عقبات كؤود تقف كسد هائل أمام اكتساب الطلاب أصول التفكير الصحيح وممارسته. ورغم ذلك، سيظل التفكير غير الصحيح له وجود حقيقى عند بعض المثقفين والمتعلمين على السواء. حقيقة، قد يكون هؤلاء المثقفين والمتعلمين ممن يمارسون التفكير غير الصحيح من القلة، بحيث يتوهون فى الزحام، ولكن يظل وسيظل لهم وجود فعلى، لذلك من المهم شرح بعض أنماط التفكير غير الصحيح بشىء من التوضيح والتفصيل، وذلك ما يتحقق فى الحديث التالى:

ثانيًا: التفكير الأسطورى:

إن التفكير الأسطورى هو تفكير العصور التى لم يكن العلم قد ظهر فيها بعد، أو لم يكن قد انتشر إلى الحد الذى يجعل منه قوة مؤثرة فى الحياة وفى طريقة معرفة الإنسان للعالم. فالأسطورة، كانت تقوم بوظيفة مماثلة لتلك التى أصبح يقوم بها

العلم بعد ذلك، وكانت هى الوسيلة الطبيعية لتفسير الظواهر فى العصر السابق على ظهور العلم.

أيضًا، الأسطورة غالبا ما تكون تفسيرا «متكاملا» للعالم أو لمجموعة من ظواهره.

وفى العصور البدائية والقديمة كانت الأسطورة تمثل نظامًا كاملاً فى النظر إلى العالم والإنسان، وكان هذا النظام يتسم، فى كثير من الأحيان، بالاتساق والتماسك الداخلى.

وأهم مبدأ ترتكز عليه الأسطورة هو المبدأ الذى يعرف باسم «حيوية الطبيعة Animism». والمقصود بهذا المبدأ هو أن التفكير الأسطورى يقوم أساسًا على صبغ الظواهر الطبيعية، غير الحية، بصبغة الحياة، بحيث تسلك هذه الظواهر كما لو كانت كائنات حية تحس وتنفعل وتتعاطف أو تتنافر مع الإنسان. ولو فكرنا مليا فى أية أسطورة فسوف نجدها تعتمد على هذا المبدأ اعتمادًا أساسيًا. فأسطورة إيزيس وأوزيريس، التى كان المصريون القدماء يفسرون بها فيضان النيل، هى اضفاء لطابع الحياة ولانفعالات الاحياء على ظاهرة طبيعية هى الفيضان. وأسطورة خلق العالم على يد سلسلة الآلهة التى تبدأ من زيوس، عند اليونانيين، تقوم على هذا المبدأ نفسه، إذ يكون لكل جزء من الطبيعة إله خاص به، ويسلك هذا الإله سلوكًا مشابهًا لسلوك البشر. وقل مثل هذا عن أية أسطورة عند أى شعب قديم أو بدائى.

ولكى ندرك مدى الاختلاف بين هذه النظرة الأسطورية إلى العالم وبين النظرة العلمية الحديثة، ينبغى أن نشير إلى أن مطلب العلم، فى الوقت الحاضر، هو المطلب المضاد: فعلى حين أن الأسطورة تعنى تفسير غير الحى عن طريق الحى، فإن العلم يسعى إلى تفسير الحى عن طريق غير الحى. أى أن العلم يحاول أن يجد لظواهر الحياة تفسيراً من خلال عمليات فيزيائية وكيميائية، وقد يتفاوت نصيبه فى النجاح من مجال إلى آخر، ولكن ما يهمنا هو الهدف، الذى يقف على النقيض من هدف التفسير الأسطورى للظواهر.

ولقد كان من الطبيعى أن يسود هذا النوع من التفسير الأسطورى فى عصور طفولة البشرية، إذ أن أول ما يتوقع من الإنسان، حين يحاول أن يفهم العالم المحيط به، هو أن يفهمه فى ضوء الحالات التى يمر بها هو ذاته، لأن المشاعر والانفعالات هى أمور نحس بها فى أنفسنا مباشرة، ولاتحتاج إلى تعليم أو تدريب خاص. ومن هنا فقد كان طبيعيًا أن يصبغ الإنسان، فى أول عهده بالمعرفة، ظواهر الطبيعة بصبغة تلك الأحاسيس والخبرات التى يشعر بها فى نفسه شعوراً مباشراً، فيتصورها كما لو كانت تنفعل وتفرح وتغضب

وتحب وتكره مثله. وهكذا علل البشر كسوف الشمس فى إطار التفسير الأسطورى، بأن الشمس غاضبة، أو بأنها «مكسوفة» (كما تغطى المرأة وجهها حين «تتكسف»). ومازال لأمثال هذه التفسيرات وجوده فى مجتمعاتنا الشرقية حتى اليوم.

ومن الجدير بالذكر أن مبدأ «حيوية الطبيعة»، الذى قلنا أن الفكر الأسطورى كله يرتكز عليه، ظل عقبة فى طريق العلم فى أوروبا ذاتها حتى القرن الثامن عشر على الأقل، إن لم يكن بعد ذلك. فقد كانت ظاهرة الكهرباء تعد دليلا على وجود مبدأ حيوى يتغلغل فى الأجسام غير الحية. كذلك كانت المغناطيسية تعد مظهراً لوجود الحياة فى الطبيعة. بل أن بعض علماء أوروبا المشهورين ظلوا، حتى القرن الثامن عشر، يقولون بإمكان الاهتداء إلى ذكور وإناث فى المعادن، وكان ذلك يبعث فى نفوسهم أملا كبيرا فى أن يأتى اليوم الذى يكتشف فيه الذهب المذكر والذهب المؤنث، حتى يمكن تحقيق «التكاثر» فى هذا المعدن النفيس! بل إن كفاح العالم الفرنسى الكبير «باستير Pasteur» ضد مبدأ التولد التلقائى Genération Spontanèe، وهو المبدأ الذى كان يُعتقد وفقا له أن الكائنات الحية الدقيقة، كالديدان وغيرها، تتولد فى بعض الأجسام الطبيعية «تلقائيا» دون أن تكون قد تولدت عن كائنات حية مماثلة -أقول أن هذا الكفاح المرير الذى خاضه «باستير» ضد أكبر علماء عصره يدل على أن بقايا مبدأ «حيوية الطبيعة» ظلت راسخة فى أذهان العلماء الأوروبيين حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر. ولايعنى ذلك أن العلم الأوروبى كان متخلفا أو متوقفا عند مرحلة بدائية، بل أن هناك كشوفا عظيمة كانت تتحقق منذ القرن السابع عشر. وكل ما تعنيه هو أن كشف الحقائق العلمية يتم، فى كثير من الأحيان، فى إطار تكتنفه كثير من عناصر الخطأ.

ولعل من أوضح الأدلة على أن الفكر الأسطورى ظل محتفظًا بمكانته فترة أطول مما ينبغى، استمرار ذلك النوع من التعليل المسمى بالتعليل «الغائى Teleological» للظواهر، أعنى تفسير ظواهر الطبيعة من خلال «الغايات» التى تحققها هذه الظواهر للبشر. فنحن نتصور، مثلا، أن الشمس تطلع كل صباح لكى تدفئ أجسامنا، وأن القمر والنجوم تظهر كل مساء لكى تنير طريقنا أو تهدى التائهين منا فى الليل. ونحن نعتقد أن المطر ينزل لكى يروى الزرع، وأن رقبة الزرافة طويلة لكى تستطيع أن تصل إلى أوراق الأشجار العالية وتتغذى بها. وهكذا نتصور أن للحوادث الطبيعية أغراضًا وغايات، ونعتقد أن التفسير الحقيقى لهذه الحوادث إنما يكمن فى تلك الأغراض والغايات.

وإذا كان مبدأ «حيوية الطبيعة»، أى وصف الطبيعة بصفات الكائنات الحية، ولاسيما الإنسان، هو -كما قلنا من قبل- المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه الفكر الأسطورى، فمن السهل أن ندرك أن فكرة «الغائية» فى تفسير الطبيعة إنما هى تطبيق مباشر لهذا المبدأ

أو امتداد له. ذلك لأن الغايات تقوم بدور أساسى فى عالم الإنسان. وهى فى هذا العالم تؤدى وظيفة طبيعية لايستطيع أحد أن يزعم بأنها تتعارض مع العلم. فالإنسان يوجه سلوكه بالفعل نحو غايات معينة، أى أنه يستذكر دروسه لكى ينجح، ويطهو الطعام لكى يأكل، ويخرج إلى الشارع لكى يتنزه. ولو سألت هذا الشخص، فى الحالات السابقة: لماذا ذاكرت؟ أو لماذا خرجت؟ إلخ... لكان الجواب الطبيعى: لكى أفعل كذا. أى أن التعليل الطبيعى لتصرفاتنا، فى هذه الحالات يأتى عن طريق الإشارة إلى الغاية منها. ومن هنا كان للغائية دور أساسى فى المجال البشرى، وكان من الممكن تعليل كثير من أفعال الإنسان عن طريق الغايات المقصودة منها.

ولكن الخطأ الذى وقع فيه المفكرون، والعلماء أنفسهم أحيانًا، خلال عصور طويلة ماضية هو أنهم نقلوا هذه الفكرة بحذافيرها من مجال الإنسان إلى مجال الطبيعة، وتصوروا أن الحوادث الطبيعية يمكن تعليلها بغاياتها، قياسا على ما يحدث فى عالم الإنسان. وهكذا فإننا إذا سألنا: لماذا يسقط المطر؟ كان رد أنصار التفكير الغائى هو: لكى يروى الزرع. وإذا سألنا: لماذا يحدث الزلزال أو الفيضان؟ كان الرد: لكى يعاقب أناسا ظالمين. وهكذا يتصور هؤلاء أن مسالك الطبيعة مماثل لمسالك الإنسان، فيقعون بذلك فى شرك التفكير الأسطورى.

والواقع أن الطبيعة لاتعرف «غايات» بالمعنى الذي نفهم به نحن هذا اللفظ، بل إن حوادثها تحكمها الضرورة فحسب، ولايحدث فيها شىء، كسقوط المطر أو وقوع فيضان، إلخ، إلا إذا توافرت الأسباب الطبيعية المؤدية إليه. وعندما تتوافر هذه الأسباب يكون حدوث الظاهرة أمرا حتميا. أما الغايات فإننا نحن الذين نخلقها، ونستغل من أجلها حوادث الطبيعة. فنحن قد وجدنا المطر بالفعل ثم اكتشفنا بالتجربة فائدته فى رى الزرع، فخلقنا هذه الغاية له، أما المطر ذاته فكان سيسقط سواء روينا به زرعنا أم لم نرويه. وقس على ذلك بقية الحالات.

والدليل الواضح على اخفاق التعليل الغائى للظواهر الطبيعية، هو أن هذا التعليل كثيرا ما يتخبط ويتناقض: ففى الوقت الذى يعتقد فيه البعض أن المطر يسقط من أجل رى زراعته، يرى البعض الآخر أنه يسقط لكى يروى ظمأه أو ظمأ ماشيته، ويرى غيرهم أنه يسقط لكى يصنع بركة يستحم فيها، بينما يرى صاحب الكوخ الهش أن سقوط المطر نقمة عليه. وحتى الفيضان أو الزلزال، الذى يبدو أنه لايمكن أن يفسر إلا بأنه نقمة، لايصيب الأشرار وحدهم، وإنما تضيع فيه أرواح بريئة كما تضيع فيه أرواح آثمة، بل إن الأرواح البريئة -كما فى حالة الأطفال والمسنين مثلا- ربما كانت أكثر تعرضا للضياع فيه من الأرواح الآثمة... هذا فضلا عن أن حادثا مؤلما كهذا لايخلو من النفع لبعض الناس،

كمتعهدى نقل الموتى مثلا! وهكذا تتباين الغايات التى يمكننا أن ننسبها إلى الظاهرة الواحدة، حسب مصالحنا ووجهات نظرنا الخاصة، ويتضح لنا أن تفسير ظواهر الطبيعة على أساس غايات مستمدة من المجال البشرى هو تفسير باطل، لايخلو من التخبط والتناقض. ولذا لم يكن من المستغرب أن يتخلى التفكير العلمى عن فكرة «الغائية» ويعده امتداداً للطريقة الأسطورية فى فهم العالم، وإن يكن التفسير الغائى للظواهر أشد خفاء، وأصعب تفنيدا، من التفسير الأسطورى المباشر.

وهكذا أصبح العلم يقتصر، فى فهمه للظواهر الطبيعية، على الأسباب التى تودى إلى حدوث هذه الظواهر، أى على ما يطلق عليه اسم «العلل أو الأسباب الفاعلة»، وهى الشروط الضرورية التى لايحدث الشىء إلا إذا توافرت، ولابد إذا توافرت من أن يحدث الشىء. وهذا النوع من الأسباب يتعلق بالمقدمات التى تمهد لحدوث الظاهرة، والتى تسبقها فى الزمان. أى أن الماضى هو الذى يتحكم فى الحاضر، فى حالة الظواهر الطبيعية. أما فى حالة الظواهر البشرية، التى يمكن أن يكون للغايات وجود فيها، فإن «المستقبل» أيضًا، بالإضافة إلى الماضى، يمكن أن يكون سببا للأحداث. فالإنسان لايتصرف بناء على سوابق ماضية فحسب، بل يتصرف أيضًا لأنه يخطط لهدف أو لمشروع فى المستقبل. ولكن هذه صفة ينفرد بها الإنسان، ولاتعرفها الطبيعة، وربما كانت هى التى أعطت الإنسان مركزه الفريد فى الكون.

ثالثا: التفكير الخرافى Superstitious Thinking:

هو التفكير الذى يقوم على إنكار العلم ورفض مناهجه، أو يلجأ -فى عصر العلم- إلى أساليب سابقة على هذا العصر. والخرافة «جزئية» تتعلق بظاهرة أو حادثة واحدة. وتتعلق الخرافات بالتفاصيل، وهى قد تكون متعارضة أو متناقضة فيما بينها؛ لأن أحداً لايحاول أن يوفق بين الخرافات المختلفة ويكون منها نظامًا أو نسقًا مترابطًا.

إن الفكر الخرافى ظل يعايش العلم فترة طويلة، ومازال يمارس تأثيره على عقول الناس حتى يومنا هذا. ولقد عاشت البشرية أمداً طويلا وهى حائرة بين العلم والخرافة؛ لأن الخط الفاصل بينهما لم يكن فى البداية واضحًا كما هو اليوم. وخلال هذه الفترة كانت الأمور مختلطة ومتداخلة، وكان كثير من العلماء ممن يجمعون بين عناصر من الخرافة وعناصر من البحث العلمى فى مركب واحد لايشعرون بأنه ينطوى على أى تنافر.

وكمثال من ميدان التنجيم وعلم الفلك، فإن ممارسة التنجيم كانت تتطلب معرفة واسعة بالحقائق الفلكية. «والأبراج» التى يقول المنجمون أنهم يعرفون بها الطالع هى أشبه ما تكون بخريطة كبرى للسماء، تضم كثيراً من المعلومات الفلكية الصحيحة. واسم

التنجيم ذاته يفترض معرفة بالنجوم، ومن ثم كان تداخله مع علم الفلك. بل إن كبار الفلكيين كانوا فى الوقت ذاته منجمين، وهذا ينطبق على العصور القديمة والعصور الوسطى الإسلامية والأوروبية، بل وعلى أوائل العصر الحديث أيضًا. فحتى **كبلر** ذاته، أعنى ذلك العالم الألمانى العظيم الذى حدد المدارات البيضاوية للكواكب واهتدى إلى مجموعة من أعظم القوانين الفلكية الرياضية، كان يؤمن بالتنجيم ويمارسه، ولم يكن يعتقد أن ممارسته له تتعارض على أى نحو مع عمله العلمى الدقيق. بل إن السعى إلى جعل التنجيم والتنبؤ بالطالع أدق، ربما كان واحدا من أهم الأسباب التى حفزت العلماء على الاشتغال بعلم الفلك، والتى جعلت هذا العلم، الذى يتناول ظواهر تبدو بعيدة كل البعد عن اهتمام الإنسان على هذه الأرض، يصبح واحدا من أقدم العلوم البشرية عهداً ومن أدقها منهجا. ولولا أن الحكام كانوا يحرصون على معرفة طالعهم، ويستشيرون المنجمين فى قراراتهم المهمة لما أولوا علم الفلك ذلك الاهتمام وقدّموا إليه ذلك التشجيع الذى أدى إلى نهوضه منذ وقت مبكر.

ولدينا مثل آخر فى ظاهرة السحر. فقد تداخلت الممارسات السحرية مع الممارسات العلمية وقتا طويلا. وبالرغم من أن السحر كان مبنيا على معتقدات خرافية لا صلة لها بالعلم، فقد كان السحرة يلجأون، فى كثير من الأحيان، إلى التعامل مع مواد الطبيعة وعناصرها على نحو يؤدى بهم إلى الكشف عن كثير من أسرارها، مما دعا بعض مؤرخى العلم إلى النظر إلى السحر بوصفه ممهدا للعلم التجريبى، ولعلوم الكيمياء والأحياء بوجه خاص. ومع ذلك فقد نشبت معركة حامية بين العلم والسحر فى مطلع العصر الأوروبى الحديث. ولم يكن رجال الكنيسة بمعزل عن هذه المعركة، وإن كانوا قد وقفوا موقفا معاديا للطرفين معا: فالسحرة فى نظرهم تتقمصهم أرواح شريرة، ومن ثم كان من الواجب حرقهم، أما العلماء فهم ينادون بتعاليم مضادة لما تقول به الكنيسة، ومن ثم فمن الواجب اضطهادهم. وفى بعض الأحيان كان العلماء يتهمون بالسحر، حتى تكون إدانتهم أيسر، وبالفعل راح عدد غير قليل من الباحثين فى العلوم الحديثة ضحية الاتهام بالسحر.

على أن هذا التداخل والاختلاط بين النظرة الخرافية والنظرة العلمية لم يدم وقتا طويلا، بل أن معالم النظرتين قد أخذت تتضح بالتدريج، وبدأت الطريقة العلمية فى النظر إلى الأمور تثبت تفوقها الساحق على الطريقة الخرافية، وذلك لسببين: أولهما أن فهم قوانين الطبيعة من خلال العلم يتيح للإنسان سيطرة حقيقية على ظواهرها، ويمكنه من تغيير مجرى حوادثها لصالحه، على حين أن النظرة الخرافية تجعله يقف من الطبيعة موقفًا سلبيًا عاجزاً. وحين بدأت ثمار التطبيقات العلمية تصبح متاحة للجميع، وأثبت العلم بطريقة ملموسة قدرته على السيطرة على الطبيعة بطريقة لا يحلم بها الساحر ذاته، لم يعد هناك مبرر لبقاء الطريقة السحرية الخرافية.

وأما السبب الثانى فهو أن العلم قد أثبت أن نتـائجه مضمونة، يمكن التنبؤ بها، على حين أن نتيجة السحر والخرافة غيـر مضمونة على الدوام. فحين يدرس العالم ظاهرة معينة ويتوصل إلى العوامل المتحكمة فيها، يستطيع أن يضمن استخدامها لصالح الإنسان بطريقة معلومة مقدما. أما إذا واجه هذه الظاهرة عن طريق أحـجبة أو تعاويذ سحرية، فقد يصل إلى النتيجـة المطلوبة مرة، ولايصل إليها عـشرات المرات. والأدهى من ذلك أنه لن يكون قادرا حتى على التنبؤ بالحالة التى سيكون سحره فـيها فعالا، وسط عشرات الحالات التى يعجز فـيها هذا السحر. وهكذا آثر الإنســان العلم لأنه اكتسب ثقة فى نتـائجه، ولم يعد الناس يلجأون إلى الخرافات -فى معظم الأحيـان- إلا فى الحالات التى لايكون العلم فيها قد أحكم قبضته على الظواهر، كمـا فى حالة الإصابة بمرض عضال لم يستطع العلم بعد أن يكتشف علاجا له.

والواقع أن هذه الحقيقة الأخيرة تشير إلى سمة مهمة من سمات التفكير الخرافى. فقد ذكرنا أن نتائج السحر أو الخرافة غير مضـمونة، وأنها فى مقابل كل مرة تنجح فيها تخفق عشرات المرات. ومع ذلك فإن من أهم أسباب استمرار هذا اللون من التفكير، اتجاه العقل البشرى إلى التعـميم السريع، بحيث يؤمن بفاعلية السحر أو الخـرافة بناء على نجاح أمثلة قليلة جدا (وهو قطعا نجـاح تحقق بالصدفة)، دون أن يختبر الحـالات الكثيرة الأخرى التى أخفق فيها هذا الأسلوب.

ولما كان التـركيز ينصب على الحـالات القليلة التى تحقـقت، فإن الناس «يعمـمون» الحكم بحيث ينطبق على «جميع الحالات». وعـلى هذا النحو تنمو لدى الناس، وتنتشر، أسطورة صاحبة الرؤية الصادقة، أو بصيرة عراف يستشف المستقبل، إلخ...

والواقع أن ظاهرة الفكر الخـرافى أعقـد من أن تكون مجـرد بقيـة من بقايا عـصور ماضيـة، يستطيع العلم فى مسـيرته الظافرة أن يكتسـحها ويمحو جـميع آثارها. ذلك لأن الفكر الخرافى يظل متأصلا فى أذهان كثيـر من الناس حتى فى صميم عصر العلم، ويظل منتشـرا بين الناس حتى فى صمـيم عصر العلم، ويظل متـشرا بين الناس حتى فى أكـثر المجتـمعات تمسكا بالتنظيـمات العلمية. فـالعلم والخرافة، وإن كـانا ينتميان إلى عـصرين مختلفين، يظلان مـتعايشين فى نفوس البشـر أمدا طويلا، وكأنهما طبـقتان جيولوجـيتان متراصتــان الواحدة فوق الأخرى فى الجبل الواحد، وكل منهمـا ترجع إلى زمن مختلف. بل إن الشخص الذى نال من التعليم حظا رفيعا، قد يظل متمسكا بالفكر الخرافى فى كثير من جوانب حـياته التى لا يمسـها العلم مسـاسا مبـاشرا. وهكذا لا يكون اتباعـه للمنهج العلمى فى المعمل أو المختبر أو جمعه حصيلة ضخمة من المعلومات العلمية- لايكون ذلك

عاصما لذهنه من أن يؤمن فى جانب من جوانبه، بالخرافات، ويرضى بتفسير للظواهر لا علاقة له، من قريب أو بعيد، بالمنهج العلمى الذى يجيد استخدامه.

وهكذا نجد فى أكثر المجتمعات تقدما، بقايا من التعلق بالخرافة تتمثل فى إعطاء مكان الصدارة، فى كثير من الصحف، للحوادث التى تبدو خارقة للطبيعة، وفى استمرار ظهور أعمدة صحفية مثل «حظك هذا اليوم» أو قراءة الطالع من الأبراج، أو التشاؤم من الرقم ١٣، أو انتشار تعبيرات تحمل معنى خرافيا مثل «امسك الخشب»، إلى آخر هذه المظاهر التى تدل على أن التفكير الخرافى ما زال، فى عصر الصعود إلى القمر، متشبثا بكثير من مواقعه.

ولقد ظهرت تعليلات متعددة ومتباينة الاتجاه، تفسر استمرار تيار اللامعقول فى مساره الخفى تحت سطح العقلانية الظاهرة للمجتمع الحديث، وإصرار الغيبيات على عدم الاختفاء من حياة الإنسان العصرى. وربما كانت التعليلات النفسية أكثرها انتشارا. فهناك من يقولون أن الأحلام، فى حياة الإنسان، مصدر دائم للخرافة، إذ أن الصور الخيالية، غير المترابطة وغيرالواقعية، التى تظهر فى الأحلام، يمكن أن تختلط بالواقع، وتكتسب فى حياة الناس طابعا متجسدا يتخذ شكل الخرافة. وربما كان الأصل الأول لكثير من الخرافات راجعا إلى وجود شخصيات مريضة لديها استعداد أكبر للخلط بين الحلم والواقع، ولتأكيد الوجود الفعلى لأشباح وأرواح تراءت لها بإلحاح فى منامها. وقد ركزت مدرسة التحليل النفسى عند **فرويد** جهودها، فى هذا الميدان، فى بحث تأثير اللاشعور فى رؤية الإنسان للواقع، وأسهمت بذلك فى استكشاف أسباب استمرار التفكير الخرافى فى عصر ينظم الناس حياتهم فيه على أساس من العلم. ذلك لأن الخرافة، فى ضوء التحليل النفسى، لاتظهر بوصفها شيئا ماضيا لم يعد له فى حياة الإنسان مكان، بل تبدو جزءً من التكوين النفسى للإنسان، يظل كامنا فى اللاشعور إلى أن تطرأ ظروف تصعد به إلى السطح الخارجى.

على أن التعليل المستمد من مجال علم النفس، والتحليل النفسى بوجه خاص، ربما لم يكن كافيا إلا لإيضاح جانب واحد من جوانب مشكلة استمرار الفكر الخرافى فى المجتمع الحديث. فحتى لو سلمنا بالإيضاح الذى تقدمه مدرسة التحليل النفسى، سيظل علينا أن نعرف تلك الظروف التى تبعث الخرافة من أعماق اللاشعور إلى مستوى التفكير أو السلوك الواعى، ولابد أن تكون هذه الظروف منتمية إلى طبيعة المجتمع، ونوع القيم السائدة فيه، والعوامل الاجتماعية التى تتحكم فى تحديد هذه القيم.

إن الشعور بالعجز هو العامل الأساسى فى ظهـور الخرافة واستمرارها. وهذا الشعور يتخذ أشكالاً تخـتلف باختلاف البيئة والعـصر، ولكن نتيجته دائمـا واحدة، هى أن يلجأ الإنسان، فى تعليلـه للأحداث. إلى قوى لا عقلـية تساعده على الـتخلص من المشكلات التى يواجهـها تخلصا وهميـا، بدلا من أن تساعده على حلها أو حـتى مواجهتهـا بطريقة واقعية.

ومن الممكن القول أن شـعور الإنسان بالعـجز كان يتـخذ فى العصـور القديمة شكل العجـز عن الفهم، والقصـور فى معرفـة العالم المحيط به، ولذا كـان يعلل الظواهر التى لايفهمها تعليلات خرافية. أما فى العصر الحديث، بعد أن توصل الإنسان إلى معرفة تتيح له إجابات علمية عن الأسئلة الأساسية التى كان يعـجز من قبل عن فهمها، فإن المسألة لم تعد تتـعلق بالعجز عن الـفهم أو المعرفـة، بل أصبح العجـز يتمثل فى عـدم القدرة على التحكم الواعى فى مـسار المجتـمع، وفى القوى التى تسيطر عليه، أى أنه أصبح عـجزا اجتمـاعيا. وهذا ما يعلل اسـتمرار ظهور الفكر الخـرافى فى مجتمعـات لايمكن القول أن الجهل مخيم عليها، أو أن الفقر يطمس عقول الناس فيها. ففى كثير من البلاد الأوروبية، وفى الولايات المتحـدة الأمريكية بوجـه خاص، تنتشر مظاهـر واضحة للتفكيـر الخرافى، تتمثل فى «قراءة الطالع» التى تحدث أحيانًا عن طريق أجـهزة الكترونية معقدة (وهو مظهر واضح لتعايش العلم والخرافـة معا: الجهاز علمى متقدم، والهدف من اسـتخدامه خرافى متـخلف)، كما تـتمثل فى وجود جمـاعات تمارس أنواعا من السـحر (السحـر الأسود) والطقوس الغـريبة فى قلب أغنى المجـتمعـات الصناعيـة. والتعليل المعـقول لذلك هو أن الناس، برغم ما توافر لهم من معرفـة وعلم، وما يتمتعون به من مستوى عـال للمعيشة، يعجزون عن فهم القوى التى تتحكم فى مسار حياتهم، وينظرون إلى المستقبل نظرة قاتمة، ويتصورون أن العالم تشيع فيه قوى شريرة وحتمـية كئيبة تفرض على الناس أن يعيشوا فى توتر وخوف دائم من المصـير المجهول، وهى قـوى لايمكن محاربتها إلا بـقوى أخرى من نفس نوعها.

على أن الأمر الذى ينبـغى أن نؤكده، فى هذا الصدد، هو أن ظاهرة استـمرار الفكر الخرافى بأشكال مختلفة، فى المجتمعات الصناعية المتقدمة، لاتشكل مع ذلك خطرًا داهمًا على المسار العام لهذه المجـتمعات، بل إنها تظل على الدوام ظاهرة هامشـية. فنوع الحياة التى تسود المجـتمع الصناعى، حيث يحـسب كل شىء وينظم بدقة وانضبـاط، وحيث لا يسمح أسلوب الإنتاج السائد بأن تظل هناك عناصر غير محـسوبة أو غير متوقعة، وحيث تخضع الحياة اليومـية ذاتها لنظام محدد لا مجال فيه لـلاستثناءات أو الانحرافات، ولذلك

فإن نوع الحياة هذا يشكل ضمانا مؤكدا يعصم المجتمع، فى مجموعه، من أضرار التفكير الخرافى، مهما كانت درجة انتشاره على مستوى الأفراد أو الجماعات المنعزلة. ففى مثل هذه المجتمعات يظل المجرى العام للحياة خاضعا للعقلانية والترشيد والتخطيط المدروس، أما الميول الخرافية فتتخذ شكلا فرديا لايؤثر على هذا المسار العام.

بل إن من الممكن القول، بمعنى معين، أن الحياة الصناعية المخططة الدقيقة هى ذاتها التى تفرض على مجتمعاتها من آن لآخر، اللجوء إلى ألوان من التفكير الخرافى. فانتشار الخرافات فى هذه البلاد هو فى أساسه «رد فعل» على العلم المتغلغل فى صميم كيان المجتمع، ومحاولة للتخلص من قبضة تلك العقلانية المحكمة التى تمسك بجميع جوانب حياة الناس، عن طريق بعث عناصر لاعقلية من مكمنها اللاشعورى. أنه تعبير عن تمرد الشعوب الخاضعة للعقل على هذا العقل نفسه، ورغبتها فى الخروج عنه، وإن كان ذلك لايتم إلا بصورة مؤقتة لأنها فى النهاية تعود إليه، ولاتستطيع أن تتخلص منه بعد أن أصبحت كل جوانب حياتها تنظم وفقا له. إنها قفزة مؤقتة إلى الماضى البعيد عبر الحاضر، وربما كانت هذه العودة تساعدهم على تحمل الضغط والتوتر الذى تجلبه لهم الحياة الصناعية بإيقاعها السريع ونظمها الحتمية الصارمة. وهكذا يكون التفكير الخرافى، فى هذه الحالة، منبثقا من قلب التفكير العلمى والعقلى، ولايفهم إلا فى إطاره. بل إن العودة إلى الماضى السحيق هى فى هذه الحالة نتاج للمجتمع الصناعى ذاته: إذ أنها تعبير عن الرغبة فى «التغيير»، وعدم القدرة على الاستقرار طويلا على حالة واحدة. وهذه الرغبة فى التغيير هى ذاتها جزء لايتجزأ من طبيعة الحياة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة. فمن سمات هذه الحياة أنها تغير إيقاعها بسرعة، وتجدد نفسها باستمرار وترفض الجمود والاستقرار، بل إن الرغبة فى التغيير تمتد عندها حتى إلى القيم الأخلاقية والاجتماعية ذاتها. ولذلك كان الابتعاد عن العقل والعلم، فى ظاهرة الفكر الخرافى، يتم فى حالة المجتمعات الصناعية المتقدمة فى إطار عصر العقل والعلم واستجابة لمقتضياته، وهو وضع تبدو فيه مفارقة واضحة، ولكنه يعبر بالفعل عن وضع الفكر الخرافى فى المجتمعات المعاصرة المتقدمة.

إن الحرص على تأكيد هذه الحقيقة يوضح، بصورة قاطعة، الاختلاف الأساسى بين وضع العالم الشرقى عموما، والعربى بوجه خاص، ووضع العالم الصناعى المتقدم بالنسبة إلى موضوع التفكير الخرافى. ذلك لأن هناك كثيرين فى البلاد العربية يحاولون التخفيف من تأثير ظاهرة انتشار التفكير الخرافى، عن طريق الإشارة إلى وجود ظواهر مماثلة فى البلاد المتقدمة. ومثل هذه المحاولة للتهوين من شأن الفكر الخرافى والتخفيف من خطره على مجتمعاتنا يعيبها أنها تقف عند حدود السطح الخارجى للظواهر ولا تتغلغل فى

أعماقها. إذ يبدو ظاهريا أن الوضع متشابه فى الحالتين (وإن كان مقدار انتشار الخرافات عندنا أعظم بمراحل منه فى البلاد المتقدمة)، ولكن الحقيقة أن دلالة الظاهرة مختلفة فى الحالتين تمام الاختلاف.

ففى حالة مجتمعاتنا يتخذ التفكير الخرافى شكل العداء الأصيل للعلم والعقل، ويمثل هذا العداء امتدادا واستمرارا لتاريخ طويل كان العلم يحارب فيه معركة شاقة لكى يثبت أقدامه فى المجتمع. وإذا كان قد بدا خلال فترة قصيرة أن العلم تمكن من تأكيد ذاته فى مجتمعنا العربى، فمن المؤكد أن ذلك لم يحدث على مستوى المجتمع كله، وأن العداء للعلم كان هو الغالب فى بقية الفترات فى تاريخنا. وهكذا فإن انتشار الخرافة يمثل، فى حالتنا، تعبيرا عن جمود المجتمع وتوقفه عند أوضاع قديمة ومقاومته للتطور السريع المحيط به من كل جانب، والفرق واضح بين هذا الأسلوب فى الفكر الخرافى وبين أسلوب تلك المجتمعات التى مرت بتجربة التفكير العقلى حتى أعلى مراتبها، والتى يحاول بعض أفرادها أن يرتدوا عن هذه التجربة «من موقع الاندماج فيها»، لا من موقع الجهل بها أو الخوف منها أو العجز عن تحقيقها. أى أن الفرق واضح بين الفكر الخرافى حين يكون تعبيرا عن جمود متأصل وتحجر على أوضاع ظلت سائدة طوال ألوف السنين دون أن يرغب المجتمع فى تغييرها أو يجرؤ عليه، وبين هذا الفكر ذاته حين يكون تعبيرا -محدود النطاق- عن رغبة فى التغيير يشعر بها مجتمع لايستطيع أن يظل أمدا طويلا على حالة واحدة، حتى لو كانت هذه الحالة هى التفكير العقلى الرشيد.

وتلك مسألة نجد لزاما علينا أن ننبه إليها لأن بعض كتابنا، الواسعى الانتشار للأسف الشديد، يرددون نفس الحجج التى يقول بها أنصار التفكير اللاعلمى فى الغرب، لكى يبرروا بها ابتعادنا، نحن الشرقيين، عن التفكير العلمى وعدم ثقتنا فى قدرات العقل. وهذا خطأ كبير، ومغالطة أكبر، إذ أن دوافعنا فى الابتعاد عن التفكير العلمى تختلف كل الاختلاف عن دوافع مجتمع مارس هذا التفكير قرونا عديدة، فى الوقت الذى لانزال فيه نحن نكافح من أجل الدخول لأول مرة فى عصر العلم الحديث.

على أننا ينبغى أن نعترف بأن أنصار الخرافة، سواء فى بلدنا أم في خارجها، لايقتصرون على تأكيد هذا النوع «المضاد للعلم» من الخرافات. فهناك نوع آخر يدعى الانتساب إلى العلم، ويستند على شواهد يزعم أنها علمية، ومن هذا القبيل الاعتقاد بوجود قوى خارقة لدى بعض البشر، كالاستشفاف عن بعد Telepathy، أو الأشكال المختلفة لما يسمى بالحاسة السادسة أو غيرها. وربما وصل الحماس بالبعض إلى حد تأكيد قدرة «العلم» على إثبات «تحضير الأرواح»- وهو للأسف أمر ليس بعيدا عن المألوف بين

بعض المشتغلين بالعلم، وكأنهم أصبحوا واثقين من أن الروح «شىء»، وأن هذا الشىء يمكن «تحضيره»، أى يمكنه أن يذهب ويجئ، وأن هذا الشىء الذى يذهب ويجئ يستطيع أن «يتكلم»، أو يؤثر فى أشياء «مادية»، كتحريك أكواب أو اسقاط منضدة، وهذا كله يستحيل لو لم تكن الروح بدورها شيئا «ماديا»، مع أن هذا يتناقض أساسا مع تعريف الروح.

والمهم فى الأمر أن هؤلاء الذين يتمسحون بالعلم لتأكيد هذه الخرافات يلجأون إلى أساليب لاتتوافر فيها شروط التجربة العلمية على الاطلاق: فالملاحظات التى يعتمدون عليها قليلة غير قابلة للتكرار، مع أن من أهم شروط التجربة فى العلم أن يكون من الممكن تكرارها أمام أى عدد من المشاهدين، وفى مختلف الظروف، وسواء أكان هؤلاء المشاهدين من المقتنعين أم من غير المقتنعين. ومن المعروف أن شهود هذا النوع من التجارب هم فى الأغلب من النوع الذى يتوافر لديه مقدما استعداد لتصديق نتائجها. هذا فضلا عن أن التجارب تتم دائما فى جو لا يسمح بالرؤية الواضحة، إذ أن الضوء دائما خافت، ولونه أحمر (وهو أكثر الألوان تعتيما للبصر)، والجو العام يجعل الإيحاء بأى شىء ممكنا.

أما إذا ووجه أنصار هذه الخرافات ذات المظهر «العلمى» بحجج قوية تثبت ابتعاد الأساليب التى يلجأون إليها عن أصول المنهج العلمى الصحيح، فإنهم يلجأون إلى سهم آخر فى جعبتهم، وهو أن منهج العلم الحالى محدود، وأن العلم أصبح الآن يتقبل أشياء كثيرة كان يرفضها من قبل، وأنه -بالتالى- يمكن أن يعترف بهذه الظواهر الخارقة للطبيعة فى المستقبل. ومثل هذه الطريقة فى التفكير تفتح الباب، كما هو واضح، لكل الخزعبلات المخرفة، إذ يستطيع أى دجال أن يؤكد أن العلم إذا لم يكن يقبلها الآن فسوف يقبلها فى المستقبل. وواقع الأمر أننا لا نملك إلا هذا المنهج الذى أثبت أنه أفضل ما لدينا من أدوات المعرفة، وأنه مهما كان قاصرا عن بلوغ كثير من الحقائق، فإنه هو أضمن الوسائل لبلوغ «الحقيقة» ذاتها. وإلى أن يتوصل العلم ذاته إلى مناهج وأساليب أخرى أدق، فليس من حق أحد أن يتذرع بالتغيرات التى يمكن أن تطرأ عليه فى المستقبل، لكى يفرض علينا خرافاته، ويربطها زورا بعجلة التقدم العلمى.

فإذا أخفقت محاولات ربط الخرافة بالعلم، فإن أنصارها يلجأون إلى آخر أسلحتهم وأخطرها على التفكير الشعبى، وهو الربط بين الخرافة والدين. وهكذا تراهم يستغلون وجود بعض الحقائق الدينية الغيبية، كالروح مثلا، ووجود بعض النصوص الدينية التى تتحدث عن السحر والحسد، إلخ، لكى يدافعوا بحرارة عن حقيقة الظواهر الخرافية، مؤكدين أن الدين نفسه يدعمها. وللأسف، هذا السلاح هو أخطر الأسلحة جميعا، لأنه

أولا يستغل عمق الإيمان الدينى من أجل تأكيد الفكر الخرافى، ولأنه يضع الدين -بلا مبرر- فى مواجهة العلم، ويضع عقول الناس فى مواجهة الاثنين معا، فتقف حائرة بين عقيدة متأصلة فيها، وبين منهج علمى تثبت صحته على أرض الواقع العلمى فى كل لحظة.

وبعامة.. ليس هناك ما هو أضر بقضية الدين من هذا الربط بينه وبين الخرافة. ولقد حاولت الكنيسة المسيحية فى الغرب، منذ عصر النهضة، أن تسلك هذا الطريق المحفوف بالخطر، فكانت النتيجة هى ما نراه اليوم من انصراف الجماهير فى الغرب عن عقيدتها بأعداد كبيرة. والواقع أن الكنيسة كانت فى ذلك الحين تواجه تجربة جديدة كل الجدة، فلم يكن من المستغرب أن ترتكب خطأ مهاجمة العلم بحجة أنه يتعارض مع نصوص دينية (كما فى حالة قضية دوران الأرض و«ارتفاع» السماوات مثلا)، ولم يكن من المستغرب أيضا أن تضطهد الكنيسة -آنذاك- كثيرا من العلماء اضطهادا معنويا وجسديا. ولكن الحصيلة النهائية لهذا كله كانت انتصار الحقيقة العلمية، واضطرار الكنيسة إلى التراجع عن مواقعها واحدا تلو الآخر، حتى أصبحت تدافع اليوم عن كثير من الأمور التى كان القول بها فيما مضى كافيا لاضطهاد صاحبها على يد الكنيسة ذاتها.

أما نحن هنا فى العالم العربى فلسنا مضطرين على الإطلاق إلى أن نسلك هذا السبيل المحفوف بالخطر، لأننا نعيش فى عصر أصبح فيه الأخذ بالأسلوب العلمى فى الحياة مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى المجتمع. فلماذا إذن يحاول الكثيرون أن يعيدوا التجربة المريرة للكنيسة الغربية مع الخرافة وضد العلم؟ ولماذا لا تتكاتف الجهود من أجل دعم وتأكيد التفسير الدينى الذى يحارب الخرافة ويؤيد العلم؟ هذه مجرد أسئلة تثير الدهشة والاستنكار للتراجع المستمر إلى الخلف، الذى تتسم به مناقشاتنا لهذا الموضوع فى أيامنا هذه، بعد أن أصبحت صدورنا أضيق، واتهاماتنا للمفكرين تلقى جزافا، واحترامنا لآراء بعضنا بعض مفقودا. ويبدو أن البعض يصرون على أن يعيدوا محنة الفكر العلمى فى عصر النهضة الأوروبية مرة أخرى فى بلدنا. ولكن الأمل معقود على أن تسود الحكمة ويغلب التعقل، فندرك أن طريق العلم لا رجوع فيه إلى الوراء، وأن الدفاع عن الخرافة تمسحا بالدين لن يضر قضية العلم كثيرا، ولكنه يسئ إلى قضية الدين إساءة بالغة.

خلاصة القول :

التفكير الخرافى هو العملية التى يلجأ فيها الفرد إلى تصور أحداث أو أشياء، أو التفكير بها، وربطها بروابط غير حقيقية ويرى بينها علاقة لاتبدو للآخرين. أيضًا،

يمكن النظر إلى التفكير الخرافى، بأنه اصطناع بعض الأفراد لأحداث أو أسباب لاتبدو مسببة أو تحدث صدفة أو بطريقة عشوائية فيقيم بينها علاقة سببية تفتقر إلى علاقة ذهنية مفهومة هو ما يسمى بالتفكير الخرافى.

ويستعمل مصطلح **العقلية الخرافية** حينما يكون للخرافة دوراً بارزاً فى تفسيرات الأحداث وتعليلها، وفى نقل المعلومات وهى التى تحاول تحقيق أهداف الفرد والمجتمع بأساليب بعيدة عن العلم والتفسير العلمى المنطقى.

ويعتبر (**توب**، 1991) التفكير الخرافى بالنسبة للبعض وسيلة من وسائل الصمود أمام الآخرين، فيعطى الفرد دافعًا للوقوف بشجاعة فى مواجهة غيره، فيما أورد **فريزر** (Fruzer) أن التفكير الخرافى هو تطبيق وهمى لترابط المعانى عن طريق المشابهة والاتصال يقوم على أمور غير عقلانية.

إذاً، التفكير الخرافى هو ذلك الذى يفسر الحوادث تفسيرات لاترتبط بحقائق واقعية ملموسة، بل يعزوها إلى أسباب فوق طبيعية وعلى أساس غير عقلانى غامض فيه من الخيال نصيب، ويعتمد على الخرافة، والخرافة هى عقيدة أو نسق من العقائد قائمة على أساس صلة خيالية بين الأحداث غير قابلة للتبرير على أساس عقلى.

والتفكير الخرافى يبت فى الأمور بشكل حاسم نهائى وإن كان خاطئا من وجهة نظر أخرى، وهذا يوضح الفرق الجوهرى بين الحقيقة العلمية النسبية، والحقيقة الخرافية التى تميل إلى التعميم والإطلاق، ومن هنا فالتفكير الخرافى يسير فى خط موار للتفكير العلمى ولا يلتقى المنهجان لتباين واختلاف وجهتهما.

وعلى ما سبق ذكره، يمكن القول إن التفكير الخرافى يقوم على:

* نسبة الظواهر الطبيعية إلى أسباب فوق طبيعية أو علل غير صحيحة.
* ربط البدايات والنهايات ربطا مباشراً.
* افتراض صلة وهمية بين الأشياء والأحداث تستند إلى التصور والخيال.
* الانتقاء الإدراكى، فلا يلاحظ المرء إلا ما يتوقعه أو يرغب به.
* استبعاد النقد والاعتماد على المسلمات.
* تناقض مع التفكير العلمى والحقائق الواقعية.
* الجمود الفكرى ومقاومة الإقناع والتغيير.
* السطحية فى التفكير.
* المزاجية والانفعالية والتقلب فى التفكير.

رابعًا : التفكير التسلطى Authoratative Thinking:

السلطة هى المصدر الذى لايناقش، والذى نخضع له بناء على إيماننا بأن رأيه هو الكلمة النهائية، وبأن معرفته تسمو على معرفتنا.

والخضوع للسلطة أسلوب مريح فى حل المشكلات، ولكنه أسلوب ينم عن العجز والافتقار إلى الروح الخلاقة. ومن هنا فإن العصور التى كانت السلطة فيها هى المرجع الأخير فى شئون العلم والفكر كانت عصورا متخلفة خلت من كل إبداع. ومن هنا أيضا فإن عصور النهضة والتقدم كانت تجد لزاما عليها أن تحارب السلطة العقلية السائدة بقوة، ممهدة الأرض بذلك للابتكار والتجديد.

وأشهر أمثلة السلطة الفكرية والعلمية فى التاريخ الثقافى هى شخصية **أرسطو**. فقد ظل هذا الفيلسوف اليونانى الكبير يمثل المصدر الأساسى للمعرفة، فى شتى نواحيها، طوال العصور الوسطى الأوروبية، أى طوال أكثر من ألف وخمسمائة عام. كذلك كانت كثير من قضاياه تؤخذ بلا مناقشة فى العالم الإسلامى، حيث كان يعد «المعلم الأول»، وإن كان بعض العلماء الإسلاميين قد تحرروا من سلطته فى نواح معينة، ولاسيما فى ميدان العلم التجريبى.

وكرد فعل طبيعى للخضوع للسلطة الذى يوضحه الحديث السابق، إنبثق مفهوم التفكير التسلطى، وهو تفكير يقتل التلقائية، والنقد، والإبداع، ويمكن وصفه بأنه تفكير مرضى قد ترد أصوله إلى أساليب تنشئة طفولية متسلطة.

ويقصد بهذا النمط من التفكير، التفكير المغلق الذى يصف الإنسان الذى يتميز به الفرد فى توظيفه للمعلومات فى مواقف متنوعة ومتباينة، ويلاحظ من خلال التمسك بالأحكام المتطرفة التى تتصف بالثبات والجمود ومسايرتها، والميل إلى القبول المطلق أو الرفض المطلق مع مقاومة التغيير، وعدم تحمل الغموض فى المواقف أو الضغوط النفسية، وقد أورد **روكيش** (Rokeach) أن الجمود يتمثل فى طريقة التفكير والسلوك التى تظهر مع أى فكرة بغض النظر عن مضمونها، وتتميز بنظرة سطحية للحياة، وعدم التسامح إزاء المعتقدات والأفكار المخالفة، واقتصار ذلك التسامح مع أصحاب المعتقدات والأفكار المشابهة.

إن شيوع نمط التفكير التسلطى يسهم فى إعداد وتحقيق:

- شخصيات ضعيفة.
- أطفال إنسحابيين خجولين.
- أفكار معادية للتفكير العلمى.

وعليه.. يتسم الطفل فى الصف التسلطى بالسمات التالية:

١ - عنيف	٤ - متبلد الإحساس
٢ - عدوانى	٥ - سوداوى
٣ - متصلب	٦ - انتهازى

ويخلق الاتصال التسلطى جوا مشحونًا بالكراهية والحقد بين المرسل والمستقبل، وذلك قد يؤدى إلى ثورة المستقبل يومًا على المرسل والانتقام منه أو إلى تكاسل المستقبل فى أداء العمل والانطواء على نفسه.

ومثل هذا النمط من التفكير يظهر فى العلاقات العسكرية بين الأفراد ولا يساعد الفرد على التكيف الجيد لأنه يخلق فى نفسه الخوف، والخوف يقتل فيه الثقة بالنفس وحب المغامرة والجرأة والإقدام والمبادرة، فيتحول الفرد إلى ممتثل خنوع أو إلى متمرد هدام.

ولعل هذا يوضح العلاقة الاختلافية التباعدية بين نمط التفكير التسلطى وأنماط تفكير أخرى، مثل: التفكير الإبداعى والتفكير الناقد والتفكير العلمى والتفكير المنطقى.

مما سبق يمكن القول إن نمط التفكير التسلطى ينعكس من خلال:

* عدم الرغبة فى اختبار البرهان الجديد بعد تكون الرأى.
* تعطيل الحكم على الموقف حتى يكون البرهان كافيا.
* الميل السريع لرفض أى دليل أو مناقشات تتعارض مع معتقدات وأفكار الفرد.
* الميل إلى تكوين معتقدات قوية، ومقاومة للتغيير بحدة.
* الميل إلى إهمال الأفراد الآخرين المخالفين فى الاعتقاد والأفكار.
* الميل إلى إثبات الذات بطرق مربكة لعملية الإتصال، مثل: رفع الصوت مع المتحدث.
* الميل إلى إخضاع الآخرين له بصورة مطلقة[٦].

المراجع

(١) ماكس بيروتز، ترجمة وائـل أتاسى، بسام معصرانى، **ضرورة العلم.. دراسات فى العلم والعلماء**، سلسلة عالم المعرفـة (الكويت)، العدد ٢٤٥، مايو ١٩٩٩، ص ٧، ص ص ١٢٤-١٢٦.

(٢) يُمنى طريف الخـولى، **فلسفة العلم فى القرن العشـرين.. الأصول-الحصاد، الآفاق المستقبلية**، سلسلة عالم المعـرفة (الكويت)، العدد ٢٦٤، ديسـمبر ٢٠٠٠، ص ص ١٢-١٣.

(٣) فؤاد زكريا، **التفكيرالعلمى**، الطبعة الثالثـة، سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، ١٩٨٨، ص ص ٥٧-٦١.

(٤) ميتشو كاكو، ترجمة سعد الدين خرفان، **رؤى مستقبلية.. كيف سيغير العلم حياتنا فى القرن الواحـد والعشرين**، سلسلة عالم المـعرفة (الكويت)، العـدد ٢٧٠، يونيو ٢٠٠١، ص ١٣.

(٥) نبيل على، **العرب وعصر المعلومات**، سلسلة عالم المعـرفة (الكويت)، العدد ١٨٤، أبريل ١٩٩٤، ص ص ٣٥-٣٧.

(٦) نايفه قطامى، **تعليم التفكير للمرحلة الأساسية**، عمان (الأردن): دار الفكر، ٢٠٠١، ص ص ٥٨-٦٠.